أحمد بابا التمبكتي... يوم قُيِّد العلم بالسلاسل

(لو كان الجهل فضيلة، لما حُورب العلماء)

(لا ردني اللـه الى هـذا المعـاد ولا رجعـني الى هذه البلاد)

أثناء خروجه من منفاه في مراكش عائــدا على موطنه تمبكتو

وقف المنصور أمام خريطة يتفحصها في قصره بمراكش ومعه جودر باشا قائد الجيش

المنصور: تمبكتو... ليست مدينة يا جــودر، إنهـا عقلٌ كامل.

جودر: غدا ستكون ملكا لكم سيوفهم لن تمنعنا

المنصــور: أنــا لا أخشــى ســيوفهم... أخشــى كتبهم.

جودر: الكتب؟

المنصور: نعم. البارود يقتـل الجسـد مـرة، أمـا الكتب... فتُحيي ألف جسد.

يصمت لحظـة، ثم يكمـل: في تمبكتـو فقهـاء لا يعترفون بسلطان، وعلماء يمنحون الشرعية أو يسلبونها.

جودر: هل أأقاتلهم كما أقاتل الجنود؟

المنصور: بل أشد. صادِر المكتبات قبل الـذهب والملح، وأغلق الحِلَق قبل القلاع.

جودر: وماذا عن العلماء؟

المنصـور: ستحضـرهم الى مـراكش وخاصـة أحمد بابا التمبكتي. نحن لا نخوض معركة حدود فحـتى بعـد النصـر سـيكون من المسـتحيل السيطرة على مملكتهم الفسيحة أنها معركـة معركـة عقـل لـذا يجب أن نسـلبهم عقـولهم وكتبهم.

جـودر: لن تكـون مشـكلة فجيشـهم يحـارب كالعصور الوسطى، سـيوف ورمـاح وفرسـان.. مـا يقلقـني فقهـاء المغـرب أنهم يعارضـون الحرب وهذا قد يسبب مشاكل مـع جنودنـا في قتال مسـلمين مثلهم لسـنا في وادي المخـازن أمام البرتغال والخونة.

المنصـور: يجب الا يعلـو الـدين فـوق السياسـة وسـتكون هنـاك مكافـات سـخية للجميـع بعـد المعركـة سـنكون أغـني البشـر على هـذا الكـوكب.. نحن نحـارب بالبـارود والمـدافع الانجليزيـة.. سننتصـر ولكن تـذكّر إذا انتصـرت

المــدافع وبقيت الكتب سنخســر كــل شــيء. ولاتنسى أحمد بابا أريده في مراكش

معركة تونديبي

تقدم مساعد جودر باشا من سيده وبدأ الحديث قـائلا وهــو يســتعرض قــوات الجيش الســعدي المتوجــه الى تونــديبي وهــو مــرعى للماشــية شمال غاو

- ألا ترى سيدي أننــا نشــن حــرب غـير شــرعية ضد أمة مسلمة أخرى

جودر باشا - انت تتحدث مثل الفقهــاء ولا يجب ذلك في ساحة المعركة

- أتحدث كمسلم هؤلاء ليسوا البرتغال والخونــة في وادي المخــازن هــؤلاء مســلمون مثلنــا كــل ذنبهم أنهم يمتلكـــون الـــذهب والملح والكتب التي يريدها المنصور

- كلامك صحيح ولكننــا الان في مهمــة اســتولينا على منـــاجم الملح في تـــاغرة والان بمـــدافعنا الانجليزيـــة وبنادقنـــا ســـيكون الوصـــول الى سونغاي سهل وننتهي من مهمتنا

- جيش سونغاي ينتظــر في تونــديبي مــع ســلاح الفرسان

- اذن سنصل في 13 مارس ونسحق فرسانهم بمـــدافعنا وبنادقنـــا نحن في عـــام 1591 ولا يزالون يحاربون بطريقة صلاح الدين

- وبعدها

- بعــدها الى العاصــمة ومصــادرة كــل الكتب واعتقال كل العلماء فهذا ما أكده المنصور علي قبل حتى الذهب والملح

- يعلم أن القوة في العلم

- ســيكون أغــني رجــل في العــالم بعــد هــذه المعركة

- الذهب والملح والكتب وعلــوم تمبكتــو وفديــة الملوك من معركة وادي المخازن

بــدأت المعركــة وفشــلت خطــة جيش ســونغاي بإرســـال 1000 رأس من قطيـــع الماشـــية المــذعور باتجــاه المغاربــة في تــدمير خطــوط دفاعاتهم، حيث تم صد هجوم الماشية بأصوات طلقــات البــارود وضــجيج المــدافع، ممــا أدى بقطيــع الماشــية الهــائج إلى الارتــداد والعــودة باتجــاه الخطــوط الدفاعيــة لجيش ســونغاي وأنعكس الأمر عليهم

بعـد ذلـك قـام جيش سـونغاي بإرسـال سـلاح الفرسان لمهاجمـة الخطـوط المغربيـة ولكنهم سحقوا ورفض الكثير منهم الفـرار واستشـهدوا في المعركـــة وكـــذلك امـــبراطور الســـونغاي "اسكيا اسحاق الثاني" فـر من المعركـة ولكنـه قتـل بعـد ذلـك على يـد أحـد أقاربـه. وانتهت المعركـة بسـرعة ليتوجـه جـودر الى العاصـمة مباشرة والـتي اصـبحت غنيمـة سـهلة بكـل مـا فيها بعد سحق جيش سونغاي المكــون من 40 الف مقاتل.

في المسجد

يعرف الجميع العالم الجليل أحمد بابـا ودروسـه العلمية في الفقه والعقيدة وغيرها ولكنه اليــوم يجلس مع الأطفال في المسجد ممسكا بطبــق من العنب بـــه 90 حبـــة عنب بالضـــبط وبـــدأ الأطفال بسؤال

- كم حبة عنب في الطبق
- 1000
- 1000 أنت محتــاج لعلاج عينيــك انظــر ثم لاحظ ثم احسب
- 95
- 70

أوقفهم عن الكلام ثم قـــال ســــاطلب من خمســة منــك كتابــة رقم يتوقعــه في ورقــة وبالفعل كتب خمسة منهم الرقم الذي توقعه في ورقة ثم أكمل

- الأرقام الخمسة سنجمعها ثم نقسـمها على 5 لنحصل على رقم 91 حبة عنب

يضحك احمد ثم يقول – بالفعل الطبق به 90 حبة عنـدما قـرر كـل واحـد منفـردا يمكن أن يخطـأ ولكنكم معـا يجب أن تخرجـوا بـالرقم الصــحيح وهكــذا عنــدما تكونــوا معــا دائمــا ســتكونون على الصــواب والطريــق الصــحيح والان نسأل السؤال الثاني كيـف نأكـل العنب دون أن نأكل العنب

- كيف هذا نأكل العنب دون أن نأكل العنب
- هنا اللغز
- كيف هذا
- اســـتمعوا الى قصـــة مدينـــة العـــذاب أولا القصـــة تقـــول أن رجـــل ذهب الى مدينـــة العذاب وكـانت مفاجـاة أنهـا مدينـة جميلـة جدا بها فاكهة وأشجار وثمار في كل مكـان وأنهــار ولكن النــاس في المدينــة جيــاع لا يأكلون لأنهم مربطون ولا يســتطيع أحــد أن

يأكـل من كـل الخـيرات الـتي حولـه فـترك الرجل المدينـة وذهب الى مدينـة السـعادة فوجدها مثل مدينة العذاب بالضبط والناس ايضـا مربوطـة ولكنهم يسـاعدون بعضـهم البعض ويطعمون بعضهم البعض

- فهمت يجب أن أطعم أخي العنب ويطعمني العنب وهكـذا أكـون أكلت العنب دون أن أكل العنب
- صـــحيح أحســـنت والان وزع العنب على زملائك وهناك المزيد للجميع

أكمل أحمد درسه مـع الأطفـال بتفاحـة جميلـة أظهرها لهم ثم قال

- ســتكون مســابقة بين اثــنين ومن يفــوز ويجيب السؤال الـذي اسـاله لـه سيكسـب التفاحة

تقدم طفلين فسأل الأول

- مـا هي أسـم أول معركـة في الاسـلام بين المسلمين والكفار

ضحك الطفل لسهولة السؤال وقال – معركة بدر طبعا

- أحسنت اجابة صحيح والان السؤال لزميلك في معركة بدر اشـترك مـا يقـارب ال300

صحابي أذكر اسمائهم جميعا خلال دقيقتين فقط

نظر الطفل مذهولا ولم يجب وأخـذ الأطفـال ينظرون لبعضهم حتى تحدث أحدهم

- هذا مستحيل حتى لو قرأ منه ورقة الاجابة
- أذن فهو يخسر لأنه لم يجب السـؤال وفـاز زميلــه بالتفاحــة.. مــاذا تعلمت من هــذه المسابقة
- أنــك تريــد اعطــاء التفاحــة لعبــد الــرحمن وليس زياد

ضحك أحمد وقـال – لا هنـاك تفـاح للجميـع لقد أردت أن أعلمك الظلم مـا حـدث ظلم لقد ظلمت زياد فلا يجب أن تظلمـوا الظلم ظلمات يوم القيامة

أنتبه أحمد بابا الى تلميـذه يعقـوب الـذي دخـل مسرعا ويبدو عليه الاضطراب فعرف أنه يحمل أخبارا سيئة فـالتفت للاطفـال من جديـد وقـال لأكبرهم – العب معهم لعبة الحروف والكلمات

اللعبة عبارة عن فـريقين من الأطفـال أو أكـثر والحـروف العربيـة مكتوبـة على أوراق ويقـول الحكم كلمـة ويجب على كـل فريـق أن يشـكل

الكلمة من الأوراق انشغل الأطفال باللعبة بينما توجه ليعقوب الذي أسرع نحوه وقال فزعا

- هـــزم جيش الســـنغاي في تونـــديبي.. ســحقوهم بالمــدافع والبـــارود وجنودنـــا المســاكين يحــاربون بالســيوف وســاعات قليلة ويدخلون المدينة
- مسلم يقتل مسلم لا حول ولا قوة الا بالله
- المنصور يريـد الـذهب والملح والكتب قبـل كل شئ
- من قائد السعديين
- جودر باشا
- لا أصدق حـارب البرتغـال في معركـة وادي المخازن واليوم يقتل المسلمين
- كما قلت أحمـد المنصـور الـذهبي سـلطان الدولــة الســعدية بــالمغرب يريــد الــذهب والملح وأيضـــا الكتب ســيتم نهب مكتبتـــك ولاشك
- يجب أن نحمى الأطفال أولا

بالفعـل هـذا مـا حـدث فمـا ان دخـل جيش الســعديين تمبكتــو حــتى بــدأوا بالمكتبــات والكتب ومصادرتها قبل كل شئ واعتقال كل علمــاء المدينــة وفي مقــدمتهم أحمــد بابــا واسـتغرق الأمـر الكثـير من الـوقت فجامعـة

سنكوري وحدها تضم أكثر من 100 الف مخطوطة وهي من أقدم جامعات العالم

نظر يعقوب تلميذ أحمد الى ما يحدث وهو يرى استاذه مقيد بالسلاسل

- كان يجب أن نتسلح بالمدافع والبارود لا الكتب
- المسلم للمسلم درع وسيف ولكن ما يحدث محزن المسلم يقتل أخيه المسلم ويسرقه
- سيتم نقلنا الى مرأكش.. تمبكتو ستموت كمدينة نهبوا الكتب والعلماء وأيضا الملح والذهب لن يبقى للمدينة شئ ليعيش الناس من أجله

الى مراكش

تقدم جودر باشا من أحمد بابا والذي كسرت قدمه بعد أن سقط من فوق الجمل وهو مقيد بالسلاسل ليطمئن عليه فقد ذهبت أيام الجاه والعز في تمبكتو وستبدأ أيام الأسر في مراكش فارحموا عزيز قوم ذل ولكن أحمد بابا ابتدره بالحديث

- غريبٌ أمركم يا أهل المغرب... تحاربون البرتغالي في وادي المخازن، ثم تحملون سلاحه لتطعنوا به مسلمًا.
- نحن نُطيع الدولة.
- والدولة إن عصت الله... هل تُطاع؟ أتدري ماذا فعلتم اليوم؟
- انتصرنا
- بل فتحتم الباب للمستعمر. بابًا سيدخل منه البرتغالي، والإسباني، والفرنسي... حين يرون المسلم يقتل أخاه ويسرق علمه.

كلام علماء لا يوقف مدفعًا الدول لا تُبنى بالمواعظ. تُبنى بالقوة. بالبارود. بالمدافع. بالذهب والملح. ولهذا كانت تمبكتو... هدفًا.

- قوة الإسلام لم تكن يومًا في الحديد، بل في العدل. في الأخلاق. في الدين في أن لا يُظلم مسلمٌ باسم سلطان.
- وهل أنقذت الأخلاق الأندلس؟
- بل خذلتها الخيانة... كما تفعلون اليوم. أخبرني عن كتبي هل ماتت مثل أسرتي بالطاعون
- المنصور حريص عليها... أكثر من حرصه على الذهب والمدافع.

- خاف منها كمـا خـاف منهـا غـيره. الكتب لا تُحتل...لكنها تُفزع الظالمين.
- ســــتعيش في مــــراكش. ورغم الأســــر ستستطيع الكتابة والتدريس أيضا ســتعيش فقيرا ولكن ستبقى مدرسا وعالما
- وأعيش شـاهدًا حين تضـيع هـذه الأمـة... تذكّر أن أول ما قُيّد فيها لم يكن السـيف... بل القلم.
- (تتحـــرك القافلـــة، ويبتعـــد الصـــوت في الصحراء)

بالفعـل حـدث مـا أخـبره بـه جـودر تم سـجنه لعامين ثم أصبح مدرسا وألف الكثير من الكتب حتى قيل عنه مجـالس العلم بمـراكش: (دخـل علينا أحمد بابا أسيرًا، فما لبث أن صار أسـتاذًا، وأخذنا عنه كما يؤخذ عن الأئمة) ولكنـه عـاش فقيرا حتى وفاة أحمـد المنصـور الـذهبي عـام 1603م فسُمح لأحمـد بابـا بـالعودة إلى تمبكتو وهناك لم يجد المدينة التي يعرفهـا فقـد مـاتت تمبكتو عقلا وروحا ولكنه ظـل مدرسـا عشـرين عاما حتى مـات في 6 شـعبان 1036 هـ / 22 أبريل 1627م ودفن في حي سـنكوري بعـد أن تتلمذ عليه يده الكثير من العلماء وألـف الكثـير

من الكتب ألـــف معظمهـــا أثنـــاء فـــترة نفيـــه بمراكش.

تمبكتو اليوم

وقفت أمام مركز أحمد بابا للتوثيق والبحـــوث (CEDRAB) – تمبكتـــو مؤسســـة علميـــة كـــبرى تحمـــــل اســـمه تضـــم: آلاف المخطوطـــات الإسلامية وتراث غرب إفريقيا العلمي ويُعد من أهم مراكز المخطوطـات في العـالم الإسـلامي هذا المركز من أجـل شـخص بـل لربـط اسـمه بالعلم والذاكرة الحضارية وكـأن تمبكتـو تقـول: أحمد بابا لا يموت بل يُقرأ.

وأمام مسجد سنكوري وقف رجـل الى جـواري وأبتدرني بالحديث

- تأخرتَ.
- أأنت؟
- أنا ما بقي من السؤال.

-عـــدتَ... ووجـــدتَ مـــدينتك خرابًـــا. لمـــاذا لم ترحل؟ لماذا بقيتَ تُدرّس عشرين عامًا؟

- لأن المحتـــل يـــربح حين نغـــادر. ويخســـر حين نعلّم.

- لكن تمبكتو لم تعد كما كانت.

- ولا الأمة الاسلامية. أنا لم أُدرّس لأُعيد الماضي... بل لأمنع مستقبلًا أسوأ.

- كتبك صودرت... والمدينة سُرقت... وأنت صبرت.

- العلم يا بُنيّ ليس نصرًا سريعًا...

- وماذا عن القوة – المدافع - الطائرات

- كل دولةٍ بلا عدل قنبلةٌ مؤجلة. أخبرهم... أنني لم أبكِ تمبكتو لأنها سقطت، بل لأنهم ظنوا أن سقوطها نهاية. إذا رأيتَ كتابًا يُصادَر... فاعلم أن معركة بدأت. وإذا رأيتَ عالمًا يُخوَّن... فاعلم أن خوفهم حقيقي. أنا متُّ منذ زمن... لكن العلم لا قبر له.

(كان أخونا أحمد بابا من أهل العلم والفهم والإدراك التام الحسن ، حسن التصنيف كامل الحظ من العلوم فقها وحديثا وعربية وتاريخا ، مطبوعا على التأليف)

محمد بن يعقوب المراكشي

(فتح الله علي بملاقاة عالم الدنيا ومعلمها ، حامل لواء الأحاديث ومفهمها، رافع راية مذهب الإمام مالك ومقدمها ، العالم العلامة ،

المقبـول الفاضـل الفهامـة أبـا العبـاس سـيدي أحمد بابا)

أحمد بن الحاج محمد فهدي التواتي

(منهم الفقيه العالم العلامة فريد دهره، ووحيد عصره البـارع في كـل فن من فنـون العلم أبـو العباس أحمد بابا)

السعدي

(مــا رأينــا من شــيوخنا من جمــع بين العلم والحرية كما جمعهما أحمد بابا)

تلميـذه محمـد بن عبـد الـرحمن (من مدرسـة سنكوري)

(العالِم إذا خالط السـلطان ابتُلي، وإذا صـمت عن الظلم هلك)

أحمد بابا التمبكتي

تمت